الحياة الطيّبة
السنة 28
العدد 58 - 59
صيف - خريف 2024م

الاستشراق وحمولته الفكريَّة والأيديولوجيَّة

الشيخ حسن أحمد الهادي[1]

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد ﷺ، وعلى آله الأطهار الميامين عليهم السلام، وصحبه المنتجبين، وبعد...

تمتاز العمليَّة البحثيَّة بأنّها عمليَّة هادفة منظّمة، تخضع لمناهج البحث العلميّ في ميادين العلوم الإنسانيَّة والتطبيقيَّة كافَّة، وهو ما يفرض على الباحثين «التحلّي بالاستقامة والنزاهة العلميّة وسلوك الطرق القويمة للوصول إلى هدفه أو غايته...»[2]، والاستناد العلميّ الدقيق والكامل؛ لأنَّ المنهج «هو فنّ التنظيم الصحيح لسلسةٍ من الأفكار العديدة، إمّا من أجل الكشف عن الحقيقة، حين نكون بها جاهلين، وإمّا من أجل البرهنة عليها للآخرين، حين نكون بها عارفين»[3].

وهذا ما يُلزِم الباحث الذي يعمل للوصول إلى الحقيقة، وتحقيق الأهداف البحثيَّة، بالتجرُّد عن الخلفيَّات الفكريَّة تجاه القضيَّة موضوع البحث، وإلَّا لأدّى ذلك إلى نقض الغرض؛ ولأنّ ذلك نوعٌ من التحكّم غير المتّصف بالموضوعيَّة التي تعتبر عمدة العمليَّة البحثيَّة.

ونحن عندما نتتبّع نماذج من تعريفات الاستشراق سنجده متقوِّمًا بالبحث العلميّ ومناهج العلوم البحثيَّة، إذ كيف يمكن لمستشرق أن

(1) رئيس التحرير.

(2) فضل الله، مهدي: أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، ط2، بيروت، دار الطليعة، 1998م، ص25-26 بتصرّف.

(3) بدوي، عبد الرحمن: مناهج البحث العلميّ، ط3، الكويت، وكالة المطبوعات، 1977م، ص4.

يدرس الآخر بتراثه وفكره وعاداته وخصوصيَّات مجتمعه دون الاعتماد على هذه العمليَّات والأدوات والمناهج. فالاستشراق يعني في بعض تعريفاته؛ «علم الشرق أو علم العالم الشرقيّ»[1]، بل وذكروا أنّ منشأ الاستشراق إنَّما كان بهدف «إيجاد فرع متخصّص من فروع المعرفة لدراسة الشرق»[2]. وقال آخرون: الاستشراق هو «ذلك التيار الفكريّ الذي تمثّل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلاميّ، والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته»[3]. ووصفه بعضٌ بالعلم، فقال: الاستشراق هو «ذلك العلم الذي تناول المجتمعات االشرقيّة بالدراسة والتحليل من قبل علماء الغرب»[4].

وبتحليل هذه التعريفات وغيرها يتّضح وجود قاسم مشترك بينها جميعًا يتمحور حول كونه علمًا لدراسة الشرق، يتقوّم بالدراسة والتحليل من قبل علماء الغرب للشرق. وهذا ما يؤدّي بوضوحٍ وبداهةٍ إلى أنّه لا تقوم للاستشراق قائمة دون عمليَّةٍ بحثيَّةٍ وتحقيقيَّةٍ نظريَّةٍ وميدانيَّةٍ معمّقةٍ تقوم على الموضوعيَّة العلميّة.

وهذا ما يكشف عن أنّ الاستشراق قائم على غاياتٍ مشبوهةٍ تتحكّم به أهدافٌ استعماريَّةٌ كبرى وشاملة، وعلى حدّ تعبير بعضهم «الاستشراق هو إسقاط من الغرب على الشرق بهدف السيطرة عليه»[5].

ويبيّن كثير من الباحثين المتخصّصين في شؤون الاستشراق أهداف المستشرقين، نذكر منها بإيجاز: «إنّ الاستشراق لم يقم على أهدافٍ نبيلةٍ ونوايا حسنةٍ منذ نشأته، إذ كانت دراسة المستشرقيـن للإسلام في معظمها،

(1) محمود حمدي، زقزوق: الاستشراق والخلفيَّة الفكريَّة للصراع الحضاريّ، لا ط، القاهرة، دار المعارف، 1997م، ص18.

(2) شاخت، جوزيف؛ بوزورث، كليفورد: تراث الإسلام، ترجمة: محمَّد زهير السمهوري؛ حسن مؤنس؛ إحسان صدقي، تعليق وتحقيق: شاكر مصطفي، مراجعة: فؤاد زكريا، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1978م، ج1، ص64 .

(3) عليّ محمَّد، إسماعيل: الغزو الفكريّ التحدِّي والمواجهة، ط2، القاهرة، دار الكلمة، 2011م، ص214.

(4) سالم الحاج، ساسي: نقد الخطاب الاستشراقيّ، ط1، بيروت، دار المدار الإسلاميّ، 2002م، ج1، ص20.

(5) انظر: إدوارد، سعيد: الاستشراق المفاهيم الغربيّة للشرق، ترجمة: محمَّد عنانيّ، ط1، لا م، دار رؤية، 2006م، ص120.

تهدف لأخذ المعلومات عنه لاستخدامها في القضاء عليه من جهة، ومن جهة أخرى لحماية النصارى وحجب حقائق الإسلام عنهم، في الوقت الذي يقومون فيه باستغلال كلّ وسيلة للتنصير بين المسلمين، ومع ذلك فقد انتشرت المفاهيم الصحيحة عن الإسلام في المجتمعات الأوروبيَّة، فلجأ المنصّرون إلى تكثيف الهجمة الاستشراقيّة، حيث تركَّزت على تشويه أحكام الإسلام، والافتراء عليه للحدّ من انتشاره في أوروبا، وإضعاف قيمته، وتصويره للرأي الأوروبيّ والأميركيّ بصورةٍ مشوّهةٍ بعيدة عن المستوى الحضاريّ، كما ركّزت تلك الدراسات على ضرورة إحلال مفاهيم الصداقة بين الدول الغالبة والمغلوبة، تحت اسم الحضارة، والإخاء الانساني، ونحو ذلك من مسمَّياتٍ؛ لتفكيك عرى الوحدة الإسلاميّة»[1].

كما يصرّح المستشرق النمساوي «ليوبولدفايس» في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق»: «.. قد لا تتقبّل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذيّة أو الهندوكيّة، ولكنّها تحتفظ دائمًا في ما يتعلّق بهذين المذهبين بموقف عقليٍّ متّزنٍ ومبنيٍّ على التفكير، إلَّا أنّها حالما تتّجه إلى الإسلام يختلّ التوازن، ويأخذ الميل الفكري بالتسرّب، حتّى إنّ أبرز المستشرقين الأوروبيّين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزّب غير العلميّ في كتاباتهم عن الإسلام. ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أنّ الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنّه موضوع بحت في البحث العلميّ، بل على أنّه متّهم يقف أمام قضاته، لهذا ترى بعض المستشرقين يمثّلون دور المدّعي العامّ الذي يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع، فهو مع اقتناعه شخصيًّا بإجرام موكّله، لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيءٍ من الفتور: «اعتبار الأسباب المخفّفة»[2].

(1) لمعرفة المزيد من العلاقة بين التنصير والاستشراق، انظر: حَبَنَّكَة الميدانيّ الدمشقيّ، عبد الرحمن: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير-الاستشراق-الاستعمار، ط8، دمشق، دار القلم، 2000م، ص50؛ و: جريشة، عليّ محمَّد؛ الزيبق، محمَّد شريف: أساليب الغزو الفكريّ للعالم الإسلاميّ، ط3، لا م، دار الاعتصام، 1979م، ص20؛ و: النملة، عليّ بن إبراهيم: "الاستشراق في خدمة التنصير واليهوديَّة"، مجلَّة جامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلاميّة، رجب 1410هـ.ق، العدد 3، ص252.

(2) انظر: أسد، محمَّد (ليوبولدفايس): الإسلام على مفترق الطرق، تعريب: عمر فروخ، لا ط، بيروت، دار العلم للملايين، 1987م، ص52-53.

وعندما نتتبّع المناهج الغربيَّة في فهم الدين ومحاولة دراسة محتواه، نجد أنَّهم قد سلكوا ثلاثة محاور، الجامع بينها: عدم الموضوعيَّة البحثيَّة والعلميَّة، والفهم السلبيّ لها.

ففي الوقت الذي اعتمد فيه أصحاب الاتّجاه الأوَّل مبدأ قراءة الدين مطلقًا في ضوء المناهج الغربيَّة من قبل المفكِّرين الغربيِّين أنفسهم، كمنهج المادِّيَّة التاريخيَّة، والمنهج الوضعيّ أو التحليليّ، ومنهج التحليل النفسيّ، ومنهج البنيويَّة...، سواء باعتبار الدين ظاهرة وحيانيَّة، أم ممارسة بشريَّة من قبل النبيّ، أم نصوص الأنبياء وكتبهم...

نجد أصحاب الاتِّجاه الثاني، ومصداقه الأبرز الدراسات الاستشراقيَّة، قد اعتمد المناهج الغربيَّة في عمليَّة فهم الدين الإسلاميّ والحضارة الإسلاميَّة تحديدًا، كالمنهج الفينومينولجيّ، ومنهج النقد التاريخيّ، ومنهج الهيرمونطيقا،... وتطبيقها على النصّ القرآنيّ، والسيرة النبويَّة و...

في حين نجد في المحور الثالث، الانفعال السلبيّ من قبل المفكِّرين العرب والمسلمين الذين احتكّوا بالفكر الغربيّ وتأثّروا بتلك المناهج وطبّقوها على حقل الدراسات الدينيَّة الإسلاميَّة والقرآن والسُّنَّة بعد أن عزلوها عن سياقها الحضاريّ والأيديولوجيّ الذي نشأت فيه، كتأثّر اليساريِّين العرب بالمنهج الماركسيّ في الديالكتيكيَّة التاريخيَّة، والمنهج الفينومينولوجيّ، والهيرمونطيقا والأسلوبيَّة و...

إنّ هذه الاتِّجاهات والمحاور وغيرها تعبِّر بوضوح عن الرؤية الغربيَّة، والاستراتيجيَّة المعتمدة عندهم منذ القدم، والتي تتقوّم بالعديد من الأمور، من أهمِّها:

- تقوم الرؤية الغربيَّة منذ القدم، وبالاعتماد على مختلف أنواع المناهج والأدوات البحثيَّة وغيرها، على تشويه مكوّنات الهويَّة الإسلاميَّة، وعدم التعامل معها بوصفها مكوّنات تستند إلى الوحي؛

وذلك لجعل النّسق الغربيّ الفكر هو المرجعيَّة المعرفيَّة، والكتاب المعتمد في فهم الإسلام على مستوى الفكر والثقافة والقيم.

- ملاحظة استراتيجيَّات الغرب القائمة على عقدة استعمار الآخر وسعي المركزيَّة الغربيَّة للسيطرة المطلقة -فكرًا، وثقافةً، ومعارفًا، وجغرافيا، وحضارة...- على الآخر، ولا سيّما الشرق الإسلاميّ؛ للوصول إلى غاياتهم المتمثّلة بسلب سيادته وإعادة بنائه وإنتاجه سياسيًّا وعقائديًّا وعلميًّا...

وهذا ما يتطلّب الدراسة المعمّقة والواعية لكلّ المجالات التي طرقها المستشرقون في التراث العربيّ والإسلاميّ، والتصدّي البحثيّ والتحقيقيّ لها، وفق منهجيَّات علميَّة وأدوات بحثيَّة متكافئة ومعروفة عالميًّا عند الآخر؛ "لأنّنا إذا لم نتصدَّ للتيّار الاستشراقيّ بكلِّ قوّة، فسوف نتعرّض للانسلاخ والذوبان لا محالة، والمعركة بين الاستشراق والإسلام معركة فكريَّة هائلة جنّد لها المستشرقون أعدادًا كبيرة من الباحثين المتخصِّصين، والمؤسّسات؛ فمكتبات العالم مليئة بإنتاج المستشرقين، وبشتّى اللغات الإنسانيّة، وهناك عشرات المجلّات، ومئات المؤسّسات التي ترعى الاستشراق، وتعمل لخدمة المستشرقين، وهناك أيضًا آلاف العلماء والباحثين من المستشرقين الذين يتفرّغون لبحوثهم ودراساتهم، وهناك المؤتمرات الاستشراقيّة العالميّة، التي تعقد حسب الحاجة في العواصم العالميّة»[1].

(1) السابح، أحمد عبد الرحيم: الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلاميّ، ط1، القاهرة، الدار المصريَّة اللبنانيَّة، 1417هـ ق، ص30.